

أسطورة المحارب: حياة متجددة.. وقوة لا تنفذ

ليست المواصفات الجسدية الخارقة فقط هي التي تشكل صورة المحارب في التراث الشعبي العربي، لكن التكوين النفسي الخارق أيضاً. يتحول المحارب إلى طائر يخترق الفضاء، ثم يهوي بسلاحه على عدوه، فيصرعه بضربة واحدة، منقذاً أمته أو قبيلته أو دولته من فناء وشيك.

يمتطي المحارب صهوة جواده، ويقطع مسافات مقياسها الليالي والنهارات، ثم يصل إلى قلعة حصينة، سرعان ما تفقد أسوارها قوتها أمام شجاعته، ليقتحمها، منقذاً حبيبته، عائداً بها إلى دياره، مؤكداً قدرته على حماية شرف القبيلة، فينال حرية تنهي أزمان عبوديته.

يواجه المحارب تنيناً بالأسنة ثارية متعددة، وأياد تنبت من جديد كلما بترها سلاح، فيسدد ضربة واحدة في قلب التنين، دفاعاً عن معتقده، أو دينه، فيصبح قديساً بين أبناء أمته.

يموت المحارب لكنه يحيا حياة متجددة أبداً في ضمير أمته. تصعد روحه إلى السماء، لكنها تبقى خالدة على الأرض في الأشعار والأغاني والموسيقى. تحفظ الرياح اسمه، ويتناقله القمر مع الشمس مع الجبال والوديان، ليبقى البطل جيلاً بعد

جيل، ولتزداد حكاياته غرابة جيلاً بعد جيل، كل جيل يضيف إليها من روحه، فتكبر الأسطورة، وتتسع، وتطول، وتختلط فيها حكايات الحرب بحكايات الحب، وتصبح حكاية لا تنتهي، يغنيها شاعر الرابابة في الليالي الصافية، أو تحتضنها كتب التراث، وتهدي جواهرها لقراء المستقبل.

قد تكون أساطير المحاربين مجرد أساطير، فيها مبالغ غير قابلة للتصديق، لكنها على أي حال - تحمل قيم وأخلاق الحرب والمحاربين في أزمنة خلت. فالمحارب فيها يدافع عن قيمة، ولا يهدر -في المقابل- قيماً أخرى من أجل أن ينتصر. فالنصر بالخدعة والغدر ليس نصراً، والنصر بلا شرف ليس نصراً، والنصر بلا احترام لإنسانية العدو -جريكاً أو أسيراً أو قتيلاً- ليس نصراً.

في الصفحات التالية، مختارات من لوحات رسمها فنانون شعبيون عرب على جدران تخليداً لأبطال أسطوريين وقيم إنسانية محفوظة في الوجدان الشعبي، اختارها الفنان الكبير الراحل محيي الدين اللباد، وشرح نصوصها طارق يوسف رابطاً بينها والقانون الدولي الإنساني، مستخلصاً الروابط بين القانون والتراث الشعبي، وأصدرتها اللجنة الدولية في كتاب "سير ورسوم شعبية" تخليداً لمبادئها الأساسية، في العام 1996، وصورها فوتوغرافياً كمال الدين خليفة ■



عنتر بن شداد

قال الراوي: كان عنتر العبسي فارساً لا يبارى، وكان أسود اللون، وقد جر عليه ذلك العنت والإنكار وجلب عليه الوبال والاحتقار، فرفض أبوه شداد نسيبه، وأنكر بنوته، واستكثر عليه عمه مالك الاقتران بابنته عيلة لتكون زوجته، فكان في منزلة العبيد، يسوق النوق ضارباً في البيد، فشكا للجبال، وخاطب الرمال، بشعره الفصيح حين قال:

فإن عابوا سوادي عند ذكري
وجاروا من عنادي في ملامي
فلي قلب أشد من الرواسي
ولوني مثل لون المسك نام
وما أسمو بلسون الجلد يوماً
ولكن بالشجاعة والكلام

قال الراوي: وحدث في بعض الأيام، أن أغار بنو طي على مضارب الخيام، وأعملوا في بني عبس الضرب والطعان، حتى أشرفوا على الهلاك والخسران، فنادى شداد على





عنترة وصاح به: "ويلك يا عبد
السوء، أهذا يوم اشتغال مثلك
برعي الأغنام؟ وقد سبيت
النساء، وطرحت الرجال بين
الخيام، وصرنا حديثاً بين
الأنام".

فقال عنترة: "يا مولاي، وما الذي
أصنع؟" ثم ساق الغنم، وترك أباه
وعمه يعضان أصابع الندم، فقال شداة:
"إذا أردت فاركب اليوم جوادك،
حتى تبلغ مرادك، واحمل على الأعداء
وكر، وأنت بعد اليوم حر، أدخلك في
نسبي، وألحقك بحسبي".

وقال مالك: "احمل وخلص عبلة من
هذه الظلمة، وأنا أكون لك عبد وهي
لك أمة، فأزوجها لك".

فلما سمع عنترة قول عمه، لبس عدة
الحرب، وأقبل على عبلة ونجاها من
المهالك، وسلمها لأبيها مالك، وعاد إلى
الغار ونزل الغمار. فلما انتهى القتال
بنصرة بني عبيس، بعد أن صال عنترة
وجال، ذهب إلى أبيه وعمه يطلب الوفاء
بالوعد، فقال مالك: "لا وعد لعبد".

فلما سمع عنترة كلامه، غضب وحنق وجرده
حسامه، ولوح به وهو يقول:

"لا أريد منكم نسباً ولا زاماً، ولا أباً ولا
أعماماً، ولا أريد أباً غير هذا الحسام، ولا
عماً غير هذا الرمح المعتدل القوام".

القصد:

لون العيون مالوش دلالة على دقة الإبصار..
ولا على جمال الصورة المنطبعة في المخيلة
والبشرة، لونها مش دليل على سعة القلب..
أو على ضيق أفق
والمعضلة
إن القلوب جوه الضلوع ماهيش منظورة
للعيان
وإن جريان الدموع مش بالضرورة دليل
على رقة الإنسان.
والمسألة
إن ابن آدم يعمله
وإن لون البشرة، أو لون العيون ماهوش
دليل على أي شيء ■

قال أبو زيد الهلالي

قال الراوي: كان أبو زيد

في هذا الزمان، في مكة بلد الحبيب طه النبي
العدنان، بيجارب العدا من ملة اليونان، اللي
طغوا وهجموا على أخواله.

فلما رسولهم جاله، لبي أبو زيد الهلالي،
وخلفه كل الهلايل، والنجع بات خالي من رجاله.

ولا موجودين في النجع إلا كبارهم
رزق الأمير ويا الملك سرحان

وموجودين في النجع تمانين صببية
بنات الهلايل دُبل الأجفان

قال الراوي: لما الزعيم حنضل العقيلي،
عرف بأن النجع خالي من الرجال، وكان ما

بين العقيلية وبين بني هلال حرب ونزال
وقتل، ركب على طول، ودقت الطبول، صلوا

على طه الرسول:
حنضل زحف إلى نحو عرب الهلايل

في غياب سلامة الفارس الولعان
هجم على نجع الهلايل يخربه

في غياب أبو زيد يوقد النيران
هجموا عجايز بني هلال

كبارهم فلايل فلايل
واشتغل ضرب القتال

بقي الدم على الأرض سايل
قال الراوي: هذا ما كان من عربة بني

هلال، وهذا ما جرى وكان؛ فبعد القتال
والطعان، أخذ حنضل الصبايا، تمانين صببية

سبايا، ناحوا النساوين، وصبغوا الملابس
طين، وقالوا نشكي لمن؟ أين الرجال؟ ..

وأين أبو زيد فارس بني هلال؟
قالوا: اكتبوا لي غاييين

علشان يجونا يشوفونا
مات مين والي عابش مين

ومن البلا.. ينجدونا
كتبوا الجواب بالذي كان

أتانا الملك العقيلي
ولم يترك إلا اللي فيه شيب بان

وبدل نهارنا بليلي
ركب العبيد بالجواب سار

من نجد إلى مكة السعيدة

في القلب كاتم السار

في الجبل قايم ساعي ده

قال الراوي: أما ما كان من أمر العبد

المبعوث بالجواب؛ فلما وصل سلم لأبو زيد
الخطاب.

فتح الهلالي الجواب وقراه

وشاف اللي فيه والي حاصل

سلامة قال: الحمد لله

ما جزعش م الأمر واصل

قال الراوي: قال أبو زيد يا رجال، قوموا

وشدوا الرجال، هجموا العدا الأندال، على النساء

والعيال، والتدل ساعتن يحارب، يقتل صغير

وشايب، ولا يخاف الملامة.

قال الهلالي سلامة:

لاخذ بتار الهلايل

وبناتنا ح نخلصوها

أنا اللي في الحرب قايل

اعمارنا نهونوها

القصد:

لو افكرت المحارب للحظة، إنه أب،
وإنه زوج وابن، وإنه في لحظة من اللحظات
زمان، قلبه رقص بالحب،

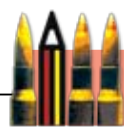
وإن بنت الجيران، انتظرتة ياما ورا الشباك،
وإن نفس النجمة اللي باح لها بسرده زمان
هناك

هي اللي فوقه الآن بتضوي في السما
لو افكرت للحظة، إن أول دقة حس بيها ف
قلبه كانت دقة مش كدابه

لو حس كل ده ح يمتنع عن أنه يبقى ديب
من الديابه

وح يعرف أن الحرب تتميز بلونها الكاكي
وساعتها يمكن يحترم تعدد الألوان ■





بالمقياس، الذي به قصر ابنته الملكة الروضة، فسان الكتاب من الضياع، وحماه من التيه في البقاع. ومنذ ذلك الحين والزمان، لم يتوقف النيل عن

الجريان.

القصد:

بين الحياة .. والعدم نقطة المية
بين الموات .. والنما نقطة المية
والحرب غول أعمى جهول.. إنما نقطة المية
لا يصح تبقى سلاح
ولا يجوز منعها في كافة
الأحوال
فالمية حق مباح
زي الهواء، والشمس
وضحكة الأطفال ■



وقراءة الطالع لكشف الغيوم،
وكانت عاقلة عالمة بتلك العلوم.
وبعد برهة قصيرة من الزمن،
عرفت ما كان من أسباب خراب
المدن، فقالت لسيف بن ذي يزن: "أنت موعود
بتمهيد مجرى النيل، فليس لعمارة هذه المدن
من بديل". فقال لها سيف: "وكيف يكون
ذلك؟".

فقالت له: "بأن تحضر
كتاب النيل، الذي يعمر
الملك، ويحمي الناس من
المهالك".
فقال سيف: "لا أعرف
أين وضعته، فقد فقدته لما
ضيعت الأمانة".

فقالت له أخته عاقصة: "أنا
أعرف مكانه، فقد سرقه منك
الحكيم سقرديس، لما تقابلتم
في موقعة أبيسيس، وأعطاه
لسيف أرعد، ملك الحبشة
والسودان، وهذا ناوله إلى
وزيره بحر قفقان ليحفظه
عند الكاهن السيسبان".

فقال سيف: "وكيف يمتع
سيف أرعد الماء عن الناس؟".
ثم جهز سيف الركب وسار،
فقطع البلاد والأمصار، ليأتي
بكتاب النيل، وعندما وصلوا
إلى جبل في واد يقال له بركة
الصحرة وبطن البقرة، برق
البرق، وزأر الرعد،
وتطارت شهب
النيران، ثم ظهر الكاهن
السيسبان، وقال لسيف: "إن
كنت تريد كتاب النيل، فأظهر

لي قدرتك في الميدان". وسلط السيسبان على
سيف الخوف فأبطله، ثم سلط سيف عليه
الرجفة فأبطلها، فنزع السيسبان شعرة من
رأسه، وجعلها حربة، فردها سيف إليه شعرة
كما كانت، ثم جعلها سيف ثعباناً كأنه النخلة
يمشي على بطنه، فردها السيسبان شعرة كما
كانت.

فقال السيسبان لسيف: "أنت ند لي،
فاطلب ما تشاء"، فقال له سيف: "أريد كتاب
النيل، لأجري الماء، وأعمر المدن". فقال له
السيسبان: "لك ما أردت يا سيف بن ذي
يزن". وأعطاه كتاب النيل، فعاد سيف به،
وأجرى المياه، وعمر البلاد، وأفاض بالخير على
العباد، ثم دفن كتاب النيل، في المكان المسمى



سيف بن ذي يزن

الحمد لله رب العالمين، وبه نستعين،
والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين.
أما بعد، فهذه قصة الأمير سيف بن ذي
يزن، الملقب بوحش الفلا، الفارس الكرار،
والبطل المغوار، صاحب البطش والافتداز، المنجد
في وقت المحن، ومخمد الأسحار والفتن. وهي
قصة غريبة الوجود، فاقت الخيال وتخطت
الحدود.

قال الراوي: وبعد أن اجتمع شمل الأمير
سيف بن ذي يزن، بأولاده في حمراء اليمن،
وحمدوا الله على ما من به عليهم من المنن،
أشار عليهم سيف أن يذهبوا جميعاً إلى مصر،
وينزلوا في قلعة الجبل، فذهبوا إليها، ثم إن
الحكيمة عاقلة انصرفت إلى استفتاء النجوم،

مار جرجس



السلام لك يا كوكب الصبح،
السلام لك أيها العفيف المشتمل بالنور،
السلام لك أيها الشجاع ذو الاسم
المكرم الذي هو جرجس الجوهري المنقذ.
قال الراوي: لما ولد القديس
جرجيوس سنة 280 ميلادية، كان
أبوه أنسطاسيوس واليًا على كبادوكيه،
وأمه ثاؤبستي من فلسطين.
ولما بلغ مار جرجس أربعة عشر
عامًا، استشهد والده بقطع رأسه، لأنه
هكذا مكتوب له، فجميع الذين يريدون
أن يعيشوا مسيحيين مضطهدون في
تلك الأيام.

وعندما قام الإمبراطور أقلايانوس
بهدم الكنائس، وحرق
الكتب المقدسة، وحرمان
العبيد من الحرية إذا
هم كانوا مسيحيين،
انتشر الاضطهاد في كل
الربوع الرومانية.

مشدودة في دولاب كبير، غرست فيه سكاكين
حادة وأشواك حديدية حتى تمزق جسده
وتناثر لحمه، ولكن القديس، الذي هو نصير
المضطهدين، يحتمل العذاب بشجاعة. وفيما هو
كذلك، إذ ظهرت سحابة من رعد قوي، وسمع
صوت عظيم قائلاً: "لا تخف يا جرجيوس
فإني معك".

ولوقت، شاهدوا القديس معافي ومحلولا
من جميع تلك الرباطات التي ربط بها، وأخيرًا
ضاق صدر الملك بالقديس، الذي تلقى العذاب
بشجاعة، وكتب قائلاً: "إن جرجس المالطي
المسمى نفسه جليلي (مسيحي) من مدينة
كبادوكيه، رفض الملك، وتفوه ضد الألهة،
وأهلكها وكسرها بأعماله السحرية، فالآن
أصدرنا قرارنا، بأخذ رأسه بحد السيف". ونال
القديس إكليل الشهادة، وكان عمره آنذاك 23
عامًا.

القصص:

ألم مرير، إنك تكون أسير .. متقيدة حريتك
وإيدك .. لا النوم ولا الصحيان ولا الأحلام
ملك إيدك .. معزول عن العالم، واقف مكانك
والحياة بتفسير .. السجن وحده عذاب .. وهذا
يكفي .. ولو العذاب طال كف اللي بيعذب .. كان
كف عن تعذيب أخوه .. وهذا وحده يكفي .. كي
يعود إنسان ■

حينئذ ظهر الملك الجليل ميخائيل
لمار جرجس، وأمره بالذهاب إلى الملك الذي أصدر
أمره باضطهاد المسيحيين، وأنبأه بما سيناله
من عذابات مريرة. ثم هكذا اختتم الملك قوله:
"تشجع يا جرجيوس، لا تخف يا جرجس،
لأني معك في كل الشدائد".

وبعد ما قام باكراً في الصباح، ورّع أولاً
ثروته وممتلكاته التي كان قد ورثها، على
الفقراء والمحتاجين، وبعد ذلك أبحر في سفينة
إلى نيقوميديا بأسيا الصغرى للقاء الإمبراطور.
ولما وصلت السفينة، شاهد رجال الإمبراطور
يحطمون أبواب الكنيسة، فذهب إلى حيث مجلس
الملك. ولوقت، أقبل القديس وصاح بجرأة: "أيها
الملك، وأنتم أيها الرومانيون، إلى متى تصبون
غضبكم على المسيحيين الأبرار؟". فاستشاط
الملك غضبًا وسأله: "من أنت؟ وكيف تجرأت
بالدخول هنا؟". أجابه القديس: "أنا جرجس بن
أنسطاسيوس والي فلسطين، وقد جئت لأخلص
شعبي من عذاباته".

فصاح الملك صيحة غضب، وأمر بأن يدخل
القديس السجن. فمضى به العسكر إلى الداخل،
وإذ دخل السجن أذاقوه صنوف العذاب، فمزقوا
جسده، وجلدوه بالسياط، وألبسوه حذاء من
الخشب به مسامير محماة بالنار في قدميه.
وكانوا يضربونه على رأسه بقصبة ويصقون
عليه، ثم أمر الملك بأن يربط القديس بحبال

الأميرة ذات الهمة

الحمد لله الذي جعل سير الأولين عبرة
للقوم الآخرين.

أما بعد، فهذه سيرة الأميرة ذات الهمة، ذات
التاريخ المنظوم، والسيرة المسطرة في الحروب
بين العرب والروم، فهي التي قادت البلاد، وأبليت
بلاء غير مسبوق في الحرب والجلاد، فملك قلب
العباد، ولجأ الناس إليها في كل ملمة،
حتى لقبوها بذات الهمة، ونعتوها
بداية العرب أو "دلهمه".

قال الراوي: فلما تزوج جدها
الصحصاح من ابنة عمه ليلى،
وأنجب منها ولدين، سمى الأكبر
ظالم والأصغر مظلوم. لما جاءته
الرؤية وهو نائم، بأن الأكبر سيكون
للأصغر ظالم. فلما شب الولدان،
تحققت النبوءة، وكان ما كان، من
ظلم ظالم لمظلوم في كل آن وشأن.

ودارت دورة الزمان، فتزوج الولدان، وأنجب
ظالم ولدا سماه الحارث، أما مظلوم، فقد رزق بابنة
سماها فاطمة. فخشى مظلوم من شماعة أخيه،
ولعن الزمن وتصاريف الدهر فيه، فأنكر البنت
وأخفاها، ودفع بها إلى مرضعة تتولاها، وتقوم على
تربيتها، فنشأت فاطمة بعيدة عن بيتها، منكرة من
أبيها، كأنها الفضيحة أراد أن يخفيها. ولكن فاطمة
عندما كبرت، ذاع صيتها واشتهرت، برجاحة العقل
والبطولة، وكان ما كان من وقائع وأحداث مهولة.
فأصبحت الفتاة التي أنكرها أبوها، فاطمة بنت
مظلوم، قائدة جيوش العرب في حروب الروم،
ومخلصة أرضهم من المعتدين، الروم البيزنطيين،
فسبحان علام الغيوب، خالق المرأة والرجل من
نفس الطين.

القصص:

في الحرب.. المرأة بتتشيل قد ما بي تشيل راجلها
مرتين، في الحرب.. أهوال القتال والضرب موزعة
على الطرفين.. بنفس القدر ويزيد على المرأة شتون
البيت، وأحوال الولاد، وخلق جو من الأمان،
يسمح لأولادها يناموا ويحلموا "بغد سعيد"،
و"نهار جديد" الأم مدرسة إذا... وإذا أداة للشرط،
أو الاختيار فهل نعيد للمرأة كل الاعتبار؟ ولا نعيد
السيرة من تاني؟ من أول: الحمد لله الذي جعل
سير الأولين... حتى: خلق المرأة والرجل من نفس
الطين! ■